ثمن الأمومة

للأستاذ محمد سعيد العريان

في الطابَق الرابع من الدار القائمة على حدود الصحراء من ضاحية حلوان ، كانت تعيش « سنية » وحيدة : لا أم ولا أب ، ولا زوج ولا ولد . لقد فارقها أبوها ولم تزل طفلةً بعد ، إلى حيث لا يرجع مَن يمضي ؛ وفارقتْ هي أمَّها العجوز وأخاها ، إلى حيث فرضتْ عليها « الوظيفةُ » أن تعيش غريبة منقطعة لتجد ما تعيش به. وما كان المرتب المحدود الذي تمنحها « وزارة المعارف » في كل شهر لِيُسعدَ فتاة في مثل سنها ، ولكنها كانت به راضية سعيدة . وقد استطاعت على امتداد الزمن أن تزيد دخلَها بضعة جنيهات في كل شهر ، مما تحصل عليه من أجرة الإشراف على بعض تلميذاتها في دراستهن المنزلية ؛ فتهيأ لها بذلك أن تنظم ميزانيتها الصغيرة تنظيماً يكفل لها أن تستمر على إعانة أمها العجوز بما ترسل إليها في كل شهر ، وأن تدّخر لنفسها شيئاً إلى شيء ، ارتقاباً ليوم تأمله ...

* * *

منذ بضع سنوات لم تغيِّر سنيةُ شيئاً من نظام حياتها ولم تحاول ؛ هذا منزلها الذي تسكنه منذ هبطت المدينة ، لم يتبدّل شيء منه ولم يتبدّل شيء منها ؛ هنا الغرفة التي تأوي إليها إذا جنّ الليل ؛ وهنا المثْوى الذي أعدته لاستقبال من يزورها فلم يطرقه زائر قط منذ كان ؛ وهنا الشرفة التي ترتفق إليها بذراعها كل مساء ساعة أو ساعات قبل أن تنام ، تسرّح النظر في الفضاء الغارق في ضوء القمر ، أو تنقّل الطَّرف بين النوافذ المضيئة قائمة في وحدتها الموحشة من سعادة الاجتماع بأنس النظر ! ... وهناك ، على مد البصر ، طفلٌ يقفز ويثب ؛ هذا هو حيث تراه كل مساء في مجلسها من الشرفة ، جالساً بين أبويه أو عابثاً لاهياً يتوثب ؛ إن بينها وبينه لسبباً قوياً ؛ إنها لتحبه كأنها ولدتْه ، وإنها لتفتقده إذا غاب كأنها بعض أهله ، وإنها لتتحدث إليه على البعد كأنه منها بمرأى ومسمع ... ذلك صديقها الوحيد في بلد لم تأنس فيه إلى صديق ؛ أترَاه يعرفها ويعرف أين هو من نفسها ؟ ... أما هي فتعرفه عرفانَ الأخ والولد ؛ وتعرف تاريخه وماضيه منذ كان وقبل أن يكون ... ...

من هذه الشرفة العالية التي يكتنفها الظلام ، أبصرتْ أمَّه عروساً في جَلوتها ، وأبصرت أباه ؛ ومن هذه الشرفة نفسها رأته جنيناً في بطن أمِّه تحيط به قُمصه ولفائفه ؛ ومن هذه الشرفة جاءها البشير بمولده والناس نيام ؛ ثم أبصرته ذات صباح طفلاً يحبو ؛ ورأته من بعدُ غلاماً يقفز ويثب ... ولكنه هو لم يعرفها بعد ...

* * *

هذه حياة سنية : أما نهارها فجهاد ودأب بلا ونى ، تغادر بيتها في الصباح الباكر إلى مدرستها ، وتغادر مدرستها إلى بيوت تلميذاتها ، فإذا جن الليل عادت ؛ وأما ليلها فهذه الشرفة وهذا الفضاء وهذا الغلام ؛ فإذا أوى الغلام إلى فراشه ، واختفى القمر وراء السحاب ، وأسدلت الستائر على النوافذ المضيئة — نهضت سنية من مجلسها في الشرفة ، فتفتح صندوقها وتحصي ما فيه ثم تأوي إلى أحلامها

ومضت بضع سنين قبل أن يجتمع في صندوق سنية ما كانت تؤمّل أن يجتمع ؛ وأيقنت — بعد صبر طويل — أنها من اليوم الذي كانت ترقب على مقربة ...

* * *

... وغربت الشمس ذات مساء ولم تعد سنية إلى دارها ؛ ثم عادت بعد العشية ، واتخذت مجلسها من الشرفة وسرحت النظر ، ولم يكن الطفل ثمة ولكنها لم تفتقده في غيبته ؛ وأوت إلى فراشها ولكنها لم تنم حتى انتصف الليل ؛ وتراءى لها الطفل في منامها وكان معه أبوه ، ثم أصبحت ...

وراحت تُعد عدة السفر إلى أمها تطلب مشورتها في أمر ذي بال ...

وابتسمت أمها فرحانة ، ثم غشيتها كآبة وهتف بها هاتف ؛ ثم عادت فابتسمت ونهضت إلى مصلاها تناجي ربها وتدعوه لابنتها العزيزة أن يتم لها ما تأمل ...

* * *

وتغيّرت سنية منذ اليوم وتبدّلت وحشتها أنساً ومسرة ، وهجرت الشرفةَ فلم تكن تنشاها إلا حين تكون على موعد ترقب له الطريق ؛ وأنست غرفةُ الاستقبال بعد وحشة وطرقها الزائر المنتظَر منذ سنين ، وتعددت زيارته ؛ وقالت له سنية ذات مساء وقد جلسا جنباً إلى جنب في الشرفة العالية التي يكتنفها الظلام وأشارتْ إلى بعيد — : أنظر يا رشاد ؛ إنه طفل ظريف !

ونظر « رشاد » حيث أشارت سنية ، وقال : نعم ، وأظرف منه أن تكوني أمّه !

وطأطأت الفتاة رأسها وتضرّجتْ وجنتاها وسبحت في حلم لذيذ ، وتراءى لها غلام يقفز ويثب بين أبيه وأمه ، في مثل مجلسهما من هذه الشرفة العالية التي يكتنفها الظلام !

* * *

وجلست سنية ورشاد يتبادلان الرأي ذات مساء ؛ وقال لها : ... وإني لأتمنى ألا توافق الحكومة على بقائك في العمل بعد الزواج ؛ لتكوني لي وحدي !

وقالت : ولكن أمي يا رشاد ... !

وأجابها : وعلىّ أن تكون أمك راضية سعيدة !

واطمأنت سنية وسُرّي عنها ما كان يقلقها منذ أيام ؛ وجلست إلى مكتبها تكتب إلى الحكومة تلتمس الإذن في الزواج ولم يطل بهما الانتظار ، ولم يقلقهما جواب الحكومة ؛ فقد كانت سنية متوقعة من قبل ألا يؤذَن لها ؛ وكانت مطمئنة إلى وعد خطيبها بأن يرضى أمها !

وراح الفتى والفتاة يعدان المدة ليوم قريب

* * *

وانتقلت سنية إلى بيت زوجها ، وشهدها صواحبها عروساً في جلوتها ، وشهدت نفسها ؛ وكانت النوافذ المضيئة ترمي أشعتها إلى بعيد ؛ وكان في الشرفات العالية التي يكتنفها الظلام عيون تنظر ... ...

... ومضت أشهر ، ونظر الجيران فإذا سنية جالسة إلى جانب النافذة تخيط قمصاناً ولفائف ؛ وفي هدأة الليل والناس نيام حل على الأسرة ضيف جديد ، وارتفع صوته يعلن البشرى بمقدمه ...

... ...

* * *

ثم استيقظت سنية من الحلم الذي ضرب على آذانها عاماً وبعض عام ؛ ونظرت ، فإذ هي وطفلها وحطامٌ من الذكريات ؛ ولم يكن الرجل ثمة ولم يكن الصندوق ... !

وقبّلتْ فتاها في جبينه وقالت وفي عينيها دموع : لا عليك يا بنيّ ؛ لقد خسرتُ الرجلَ ولكني كسبتكَ ؛ فليذهب أبوك حيث يشاء ، ولتبق لي أنت !

وخرجت تلتمس الرزق ، واتخذت طريقها إلى المدرسة ، ولكن المدرسة كانت قد أغلقت أبوابها !

وسَعَت إلى رئيس الديوان تلتمس الشفاء إليه ليردّها إلى عملها ، فأغلق دونها بابه ؛ ووقفت في مفترق الطريقين تنظر ، ثم سلكت إحداهما ...

* * *

وعاد الرئيس من الديوان إلى داره ، وانفتح باب السيارة ونزل ، وسبقته إلى الباب امرأة ؛ وهمّ حاجبه أن يمنعها ثم كف

وهتفت المرأة في ضراعة : سيدي بحقّ ولدك ... !

قال : ولكنك خُيّرْتِ من قبل فاخترتِ أن تكوني أمّا ؛ فمهمات ...

وبرّقت المرأة وصرخت في غيظ : ولكنك أنت رضيتَ أن تكون أبًا ... فلِمَ لا خُيّرْتَ أنت ؟ ... كن أبًا ، أو كن رئيساً في الديوان ، إن صحّ ألا يجتمعا ... !

وسكت الرجل وهتف هاتفٌ من وراء حجاب : « ولكن ثمن الأمومة أغلى ... ! »

* * *

... ودخل (الرجل) داره وأغلق بابه ليجلس بين زوجه وولده فيقص قصته ؛ ومضت (المرأة) على وجهها بائسة ذليلة ، لتدفع وحدها ثمن الأمومة الغالي !

محمد سعيد العريان

{ طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المبرولي — عابدين }